دراسة اللغويين العرب المحدثين لأصوات العربية قراءة لأربعة أمثلة

د. علي بن معيوف بن عبد العزيز المعيوف *

ملخص البحث:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

يعد بحثنا الموسوم بـ (دراسة اللغويين العرب المحدثين لأصوات العربية) قراءة لأربعة أمثله ، إطلالة متأنية على جهد أربعة منهم هم : د. إبراهيم أنيس ، و د. كمال محمد بشر ، ود. تمام حسان ، و د. محمود السعران وكل منهم تناول جانباً من جوانب علم الأصوات ، وهي على التسلسل : الأصوات اللغوية ، وعلم اللغة العام – الأصوات ، ومناهج البحث في علم اللغة ، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي .

وخلال رحلة البحث هذه حاول الباحث أن يعرض جهود العلماء الأربعة وأن يفصل القول فيما ذهبوا إليه من نظريات ومن ظواهر صوتية ، ومن أساليب جيدة في الدرس اللغوي الحديث ومن رؤية واضحة لما كان عليه القدماء . كما أنه في أخير البحث أورد ثبتا بأهم ما توصل إليه الباحثون الأربعة من نتائج كما أنه سجل ثبتا آخر بملحوظاته على تلك الأعمال ، وهي ليست أكثر من آراء شخصية سجلها الباحث بعد دراسته المعمقة لهذه المسائل ، ووقوفه على الآراء المختلفة التي لها علاقة بالبحث ، وفي جميعها كان يهدف إلى الفهم الصحيح لما جاءوا به من آراء ، وإلى التسديد والتصويب ما وسعه البحث إلى ذلك ، وهي مسألة قد تكون مثار جدل كبير ، ونسأل الله السداد والتوفيق .

---

* أستاذ مشارك – قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة الملك سعود – الرياض .

المقدمة :

تسعى هذه الأوراق لأن تفتحَ نافذةً على دراسة اللغويين العرب المحدثين لأصوات العربية، للوقوف على إسهامهم في هذا الحقل اللغوي، ومدى إفادتهم من معطيات الدرس اللغوي الحديث في دراسة أصوات العربية، **وموقفهم تجاه ما قدمه اللغويون العرب** الأوائل في دراسة أصوات العربية، وأبرز القضايا والظواهر الصوتية التي تناولوها في دراستهم، وذلك من خلال قراءةٍ لأربعة أعمال عربية حديثة تناولت أصوات العربية بالبحث والدراسة، وهذه الأعمال هي:

1- الأصوات اللغوية . د. إبراهيم أنيس.

2- علم اللغة العام : الأصوات. د. كمال محمد بشر.

3- مناهج البحث في اللغة . د. تمام حسّان .

4- علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي . د. محمود السَّعران.

وقبل الدخول في التفصيلات التي تضمنتها هذه الأعمال أقدم لمحة عامة موجزة لكل عملٍ منها على حدة.

أولاً- (الأصوات اللغوية) د. إبراهيم أنيس:

يبدو للمطلع على عنوان الكتاب أنه لا يختص بدراسة الأصوات العربية وحدها؛ بل ينظر إلى الأصوات اللغوية عموماً وهو الحاصل فعلاً في بعض القضايا النظرية العامة؛ لكن القارئ يجد د. أنيس قد شغل معظم أجزاء كتابه بدراسة أصوات اللغة العربية في دراسته التطبيقية للمبادئ النظرية.

وقد وظف د. أنيس في دراسته هذه أدوات البحث الحديثة في علم اللغة؛ لكنه كان يقرِنُ كثيراً دراسته لأصوات العربية بالأدوات الحديثة بما قدمه دارسو العربية الأوائل، رابطاً بين نتائج دراسته ونتائج دراسة اللغويين العرب، ومفسراً بعضها ببعض. وكانت النتائج التي توصَّل إليها اللغويون العرب في دراستهم لأصوات العربية بأدواتهم مدعاةً لفخر د. أنيس.

ثانياً - (علم اللغة العام: الأصوات) د. كمال بشر:

قدم د. كمال بشر لدراسته الأصوات العربية بفرش اعتمد فيه على نقل ما جاء في علم اللغة العام من مبادئ ونظريات في دراسة الأصوات اللغوية، ثم انصرف بعد ذلك إلى دراسة أصوات اللغة العربية. وقد اهتم د. كمال في دراسته أصوات العربية بأصوات العربية الفصحى الحديثة التي يتكلم بها المتخصصون في اللغة العربية ، وبقراءة القراء المجيدين في مصر العربية. وكان من نتائج ذلك أن نرى د. كمال يقارن في بعض الأحيان بين وصفه أحد أصوات العربية الحديثة، ووصف اللغويين العرب وعلماء التجويد لذلك الصوت في عصرهم، وفي قراءتهم ويرتب على ذلك نتائج محددة .

ويقترب كتاب د. كمال من أن يكون كتاباً تعليمياً يسهل على طلاب الجامعات العربية الرجوعُ إليه.

ثالثاً ـ (مناهج البحث في اللغة) د. تمّام حسّان:

وهو كتاب كما يدل عليه عنوانه يتعلق بوصف مناهج البحث في اللغة، إذ يقدم للقارئ مناهج نظرية لدراسة اللغة، وهي مناهج نظرية عامة لا تختص بدراسة لغة بعينها؛ بل تصلح للتطبيق عند دراسة أي لغة.

وتعدّ دراسة د. تمام حسان لأصوات العربية في كتابه وفاءً بالمطلب التطبيقي للمقدمات النظرية التي ينقلها عن اللغويين الغربيين في علم اللغة العام.

رابعاً ـ (علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي) د. محمود السّعران.

يبدو أن د. محمود يرغب في أن يقدم للقارئ العربي نبذة عمّا اطلع عليه في علم اللغة العام ومبادئ هذا العلم، والمبادئ النظرية لدراسة اللغة؛ فهو مقارب لما جاء عليه عمل د. تمام حسان مع الاختلاف في التناول، وفي طرح القضايا، وفي الهدف من العمل.

أما دراسة أصوات العربية في هذا الكتاب فهي أيضاً باب طرقه د. محمود معتمداً على المبادئ النظرية لعلم اللغة العام، وهي أيضاً سبيل إلى تقريب الصورة للقارئ العربي حين يُتْبِعُ المبادئَ النظريةَ بدراسةٍ تطبيقية على اللغة التي يتكلم بها.

أما تفصيلات دراسة أصوات العربية التي وردت في هذه الدراسات فإني أطرح ما أظنه أبرز ما جاء في هذه البحوث على النحو الآتي:

أولاً ـ القضايا والظواهر الصوتية التي تناولها الباحثون في دراساتهم:

إن أبرز القضايا الصوتية التي تناولها الباحثون الأربعة جميعاً، أو تفرد بها أحدهم هي:

1. طول الصوت اللغوي من حيثُ الزمن الذي يستغرقه النطق بصوت من الأصوات.
2. النبر.
3. انتقال النبر.
4. موسيقى الكلام (التنغيم).
5. تأثر الأصوات ببعضها عند النطق في الكلمة الواحدة وفي الكلام.
6. درجات التأثر: كالمماثلة، أو المشابهة.
7. تصنيف أصوات العربية من حيث المخرج والصفة.
8. وصف أصوات العربية وهي خارج السياق.
9. تقديم الأبجدية الصوتية واستخدام رسمها للتعبير عن الصوت العربي.
10. التعريف بمنهج التشكيل الصوتي.
11. التعريف بنظرية الفونيم.
12. دراسة المقاطع العربية.

وعلى الرغم من تعدد هذه القضايا إلا أن القضية الأبرز من حيث التناولُ والمساحةُ التي خصصت لها في الدراسات الأربع هي تصنيف أصوات

العربية من حيث المخرج والصفة ووصف هذه الأصوات في صورها المثالية خارج السياق.

ثانياً- طالب الباحثون بالإفادة من التقنية الحديثة عند دراسة الأصوات العربية؛ فهي أكفأ في كشف صفات كل صوت في أحوال النطق المختلفة، كما طالبوا بالإفادة من الرسم الصوتي العالمي لرسم الأصوات كتابيًا عند القيام بالوصف الصوتي.

فالدكتور إبراهيم أنيس يقول بعد أن أورد اختلاف القراء في طريقة تحديد طول الصوت عند المدّ: " على أنهم جميعاً قد أجمعوا على الإطالة مع اختلافٍ في نسبتها، ومن الواجب أن تحدد هذه النسبة تحديداً علمياً أدق مما هو شائع الآن بين قرائنا، ولن يكون هذا إلا بتجارب حديثة تستخدم فيها آلات القياس الحديث" [1].

ويحدد د. محمود السَّعران فصلاً خاصاً للحديث عن الدراسة الصوتية الآلية مشيداً بدقة وسائل وأدوات دراسة الأصوات اللغوية في هذا العصر متناولاً بالوصف بعض الآلات المستخدمة في دراسة الأصوات [2]. ثم يفرد عدداً من الصفحات للحديث عن أهمية الكتابة الصوتية وكونها ضرورة ملحة عند إرادة وصف الأصوات كتابياً [3].

أما د. تمام حسان فقد طبق الأمر عملياً حين سجل الرموز الكتابة الصوتية في أول كتابه، واعتمدها عند وصفه أصوات العربية.

ثالثاً- جدد بعض الباحثين النظر إلى بعض الظواهر اللغوية التي تناولها النحويون العرب: وأصدروا في ذلك أحكاماً، وكان هذا التجديد مبنياً على ما قدمه علم اللغة الحديث في الدراسات الصوتية.

فالدكتور إبراهيم أنيس، مثلاً، يفسر جزم الأفعال العربية المختومة بما أَطْلَقَ عليه (أصوات اللين)، أو ما كانت فيه هذه الأصوات قبل الآخر - يفسر ما يحدث لها عند الجزم بأنه قصرٌ للصوت، فالأفعال: ينام، يقوم، يبيع، يسمو، يرمي عند الجزم تصبح: لم ينَمْ، لم يقُمْ، لم يبِعْ،لم يَسْمُ،لم يرْمِ، إذ يقول في تفسيره: " فكل الذي أصابها هو أن صوت اللين الطويل أصبح قصيراً ، وهذه الظاهرة مطردة في اللغة العربية تحتمها قواعد اللغة" [4]. وكذلك د. كمال بشر الذي عدَّ الفتحة والضمة والكسرة، والألف والواو والياء حركات قصيرة وطويلة [5].

رابعاً- بنى بعض الباحثين فكرة حصول تطور في أصوات العربية الفصحى: اعتماداً على وصف اللغويين العرب الأوائل لبعض الأصوات وما حدث في الفصحى المُتكَلَّمِ بها اليوم من تغير هذه الصفات التي ذكرها القدماء ..

فالدكتور إبراهيم أنيس يقول: " فالقاف والطاء الأصليتان هما صوتان مجهوران حرص القدماء على جهرهما؛ ولكن رغم هذا الحرص قد تطورا إلى صوتين مهموسين في قراءتهما الآن"[6]. ويقارن د. كما بشر بين تصنيفه أصوات العربية بحسب النطق الحديث وتصنيف ابن جني ويعزو ما بينهما من فروق إلى التطور الصوتي المحتمل لأصوات العربية[7]. وفي موضع آخر من دراسته يناقش د.

كمال وصف اللغويين العرب صوت الطاء بالجهر، وصوت الضاد والقاف في المخرج والصفة واختلاف هذا الوصف عن وصفها في النطق الحديث، فيطرح عدة احتمالات لعدم الاتفاق، منها احتمال التطور الصوتي[8].

خامساً- تقدير الباحثين لعمل اللغويين العرب الأوائل في دراسة أصوات العربية:

ينظر د. إبراهيم أنيس بعين التقدير والإجلال إلى علماء العربية الأوائل لما قدموه من آراء صوتية تدل على العبقرية بالرغم من عدم توافر الأدوات البحثية التي تعين على مثل هذا الوصف كما هو الحال في العصر الحديث يقول: د. إبراهيم:" أعتقد أنه من الإنصاف لعلماء العربية القدماء أن نختم هذا الفصل بعرض سريع لتلك الإشارات التي وردت في كتاب سيبويه ثم ترددت بعد ذلك في الخصائص لابن جني ... بل هي مجرد لمحات سريعة؛ ولكنها مع ذلك تدل على عبقرية هؤلاء العلماء بالنسبة للعصور التي عاشوا فيها" [9]. ويقول د. كمال بشر مشيداً بقدرة ابن جني في مجال البحث في أصوات العربية وما قدمه من آراء حين قام د. بشر بعقد مقارنة بين الترتيب الذي اختاره هو لأصوات العربية من حيث مواضع نطقها والترتيب الذي وضعه ابن جني:" وبهذا نستطيع أن نتبين إلى أي حد وفق هذا العالم الجليل في هذا الشأن" [10].

سادساً- أمور اختلف الباحثون فيها من حيث طريقة التعبير عنها أو من حيث النتائج التي توصلوا إليها في دراساتهم:

أ)النبر:

حين تحدث د. إبراهيم أنيس عن النبر اهتم بقضية نبر المقطع الصوتي في كلمة من الكلمات، ثم أشار بإيجاز إلى أنّ هناك نوع آخر من النبر هو نبر الجمل فقال:" وهناك نوع آخر من النبر يسمى نبر الجمل: وهو أن يعمد المتكلم إلى كلمة في جملته فيزيد من نبرها ويميزها على غيرها من كلمات الجملة رغبة منه في تأكيدها، أو الإشارة إلى غرض خاص" [11]

أما د. تمام حسّان فقد اختلف تعبيره عن هذه الظاهرة وإن كان لم يأت بجديد إلا من حيث الاصطلاح إذ قسّم النبر في اللغة العربية قسمين كما فعل د. أنيس لكنه أطلق على نبر مقطع من مقاطع الكلمة الواحدة (النبر الصرفي) وأطلق على نبر كلمة في الجملة (النبر الدلالي)[12] .

ب) من حيث صور المقاطع في العربية:

رأى د. إبراهيم أنيس أنّ في العربية نوعين من المقاطع : المفتوح، والمغلق وتحت هذين النوعين خمس صور هي صور المقطع في العربية وهي: "

1- صوت ساكن + صوت لين قصير.
2- صوت ساكن + صوت لين طويل.
3- صوت ساكن + صوت لين قصير+ صوت ساكن.

4- صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن.

5- صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان" [13]

أما د. تمام حسّان فقد رأى أن في العربية ستَ صورٍ من المقاطع الصوتية وقد سجلها برموزها ومثل لها، وأنا أنقلها كما سجلها لكني أوضح مقصوده بالرموز أولاً: يرمز د. تمام إلى الصوت الصامت بـ " ص " وإلى الصوت الصائت القصير بـ "ع" وإلى الصوت الصائت الطويل بـ " ع ع " أما صور مقاطع العربية لديه فهي:

" ع ص وهو قصير مقفل

ومثاله أداة التعريف .

ص ع وهو قصير مفتوح

ومثاله باء الجر المكسورة .

ص ع ص وهو متوسط مقفل

ومثاله (لَمْ)

ص ع ع وهو متوسط مفتوح

ومثاله (ما)

ص ع ع ص وهو طويل مقفل

ومثاله (بابْ) بالسكون

ص ع ص ص وهو طويل مزدوج الإقفال

ومثاله (عَبْدْ) بالسكون" [14].

ويعني قوله (بالسكون) بعد مثاليه (باب) و (عبد) أن هذين المقطعين لا يتحققان في العربية إلا عند الوقوف على الكلمة. أما المقطع الذي ذكره د. تمام ولم يكن موجوداً في تصنيف د. أنيس فهو المقطع الأول ويتكون من حركة قصيرة وصامت ومثاله كما قال د. تمام: أداة التعريف، ويعني بها (أل).

ج) من حيثُ مخارجُ الأصوات الصامتة في العربية:

اختلف د. كمال بشر مع د. تمام حسّان في عدد مخارج الأصوات العربية الصامتة فعدها د. كمال أحد عشر مخرجاً [16]، في حين عدها د. تمام عشرة مخارج [17].

سابعاً- اعتمد بعض الدارسين على العربية الفصحى الحديثة في دراستهم كاملة: كما فعل د. كمال، أو في دراسة بعض الظواهر الصوتية التي قالوا عنها إن علماء العربية لم يتناولوها كما فعل د. أنيس حين تناول موضوع النبر في العربية، فرأى أنه ليس لدينا دليل يهدينا إلى مواضع النبر في اللغة العربية كما كان ينطق به في العصور الإسلامية الأولى إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء .

لذا قام د. أنيس بدراسة مواضع النبر في قراءة القراء في مصر العربية وحدد هذه المواضع، ورأى أن النبر في العربية – من خلال قراءة القراء – لا يكاد يشذ عن هذه المواضع [18].

ثامناً- عمد بعض الباحثين إلى التمثيل لصورة نطق صوت من أصوات العربية القديمة بأصوات ينطق بها اليوم: في الفصحى الحديثة، أو في إحدى اللهجات، وذلك اعتماداً على وصف القدماء الصوت، ورغبة في تقريب صورته إلى القارئ العربي اليوم.

من ذلك ما فعله د.أنيس، ود. كمال بشر، فالدكتور أنيس، مثلاً، قال في حديثه عن أصوات القلقلة: إن القاف " كان ينطق بها كالغين، أو الجيم القاهرية، والطاء كان ينطق بها كالضاد الحديثة التي نسمعها الآن من قرائنا" [19].

تاسعاً- تمثيل بعض الباحثين لظاهرة ما بأصوات في الأبجدية الإنجليزية:

فالدكتور أنيس حين تناول طول الصوت اللغوي مثل لذلك بطول صوت (D) الإنجليزي وصوت (A) الإنجليزيين [20]، وكذلك مثل للنبر بنبر مقاطع من كلمات إنجليزية، وكذلك فعل د. محمود السَّعران حين تناول الصوائت المركبة فمثل لها بـ (A) و (i) من اللغة الإنجليزية؛ وقد يكون هذا لشعورهما بأنَّ التمثيل بطريقة نطق الصوت في اللغة الإنجليزية أوضح في توصيل المراد.

عاشراً - تفسير بعض الباحثين مقولات اللغويين العرب القدماء بما جدّ في علم الأصوات الحديث: من ذلك ما فعله د. أنيس حين تطرق إلى حديث علماء التجويد عن أحكام الميم والنون الساكنتين، فذكروا الإخفاء، كإخفاء النون الساكنة إذا وليها واحدٌ من خمسة عشر صوتاً من أصوات العربية، يقول مفسراً ذلك:" فما سماه القدماء بإخفاء النون والميم هو في الحقيقة إطالة لهذين الصوتين رغبةً في الإبقاء عليهما ومنهما من الغناء فيما يليهما من الأصوات" [21].

الحادي عشر- طالب معظم الباحثين مَنْ يتصدى لدراسة (الكلام) ألا يعتمد على القواعد النظرية المسبقة عند الدراسة: بل عليه أن يتوقع وجود غيرها من الظواهر فيكتشفها؛ لأن (الكلام) المنطوق تحصل فيه بعض التغيرات عن الأوصاف المثالية للقضايا الصوتية خارج الكلام، وعن النظام المتصور مسبَّقاً.

من ذلك ما جاء في كتاب د. تمام حسان أثناء تناوله قضية المقطع إذ طَالَبَ من يتصدى لدراسة الكلام أن يفرق بين المقاطع التشكيلية التقعيدية والبحث اللغوي في الكلام المنطوق فكلمة (عَقْلْ) في العربية تتكون من (ص ع ص ص) عند الوقوف وهذا تقعيديا ؛ لكنها قد تنطق أثناء الكلام بقلقلة القاف فتصبح (ص ع + ص ع ص) . يقول : " ومن هنا كان من الضروري التفريق بين هذين النوعين من أنواع المقاطع؛ المقطع المقعَّد والمقطع المسموع" [22].

وليس قوله هذا مرتبطاً بدراسة المقطع فحسب؛ بل هو عام في دراسة الأصوات.

الثاني عشر- من النتائج التي توصَّلَ إليها بعض الباحثين في دراستهم العربية الفصحى مستفيدين من علم الأصوات الحديث:

توصل الباحثون إلى نتائج عدة منها:

1- أن المقطع الصوتي العربي المكون من " صوت ساكن + صورت لين طويل + صوت ساكن يكثر مجيئه متطرفاً في حال الوقف [23].

2- أن معظم الكلمات العربية المشتقة المجردة من السوابق واللواحق لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع، وأن ما جاء منها على خمسة فهو في حكم النادر [24].

3- أنه بالنظر إلى مقاطع العربية وأنواعها يمكن تشكيل عدد كبير من صور التجاور المقطعي بالطريقة الرياضية، لكن المستعمل منها لا يكاد يجاوز ربع الممكن [25].

4- أن للنبر المقطعي في العربية أربعة مواضع، وأن أكثرها شيوعاً المقطع الذي قبل الأخير [26].

5- أن صوت الهمزة في العربية لا مجهور ولا مهموس في حين كان كثير من علماء العربية يعدونه مجهوراً، وعده بعض العلماء مهموساً ووصفه الدارسون المحدثون بأنه لا مجهور ولا مهموس لأن الجهر والهمس يتعلقان باهتزاز الوترين الصوتيين من عدمه، والوتران الصوتيان لا يهتزان عند نطق الهمزة، بل ينغلقان أمام الهواء ثم ينفتحان فتخرج الهمزة انفجارية لا مهموسة ولا مجهورة [27].

6- أن الصامت الانفجاري قد ينقص انفجاره، وذلك مثلما يحدث في العربية الفصحى حين يتوالى صوتان انفجاريان دون أن يفصل بينهما صوت صامت أو صائت، سواء كان الانفجاري الأول مثل الثاني أو غيره فإن الانفجاري الأول في هذه الحالة لا يفجر [28].

الثالث عشر- أمور انتقد فيها بعضُ المحدثين اللغويين العربَ الأوائلَ:

1- من ذلك ما أخذه د. كمال بشر على القدماء حين تحدثوا عن الجهر والهمس بأنهم لم يشيروا إلى الأوتار الصوتية، ولم يعتمدوا على أوضاعها في تحديد الجهر والهمس، بل اعتمدوا - كما يرى هو- على كيفية مرور الهواء في جهاز النطق، ويصف د. كمال تعريفات علماء العربية بالصعوبة والتعقيد إلى حد أنه ليس من السهل التعرف على مقاصدهم بدقة [29].

2- يرى د. كمال أن (الألف) حركة في كل حالاتها ومواقعها في العربية؛ لذا انتقد ابنَ جني حين عدها من الأصوات الصامتة ورأى " أن ابن جني لم يكن دقيقاً في وضع الألف في هذه الأبجدية لأنها أبجدية صوامت كما خانه الحظ في تحديد مخرجها"[30].

3- وينتقد د. كمال القدماء فيرى أنهم " لم يعنوا بالحركات العناية اللائقة بها" [31].

4- وعندما تحدث د. تمام حسان عن مخارج الأصوات في العربية قال منتقداً نحاة العربية: " ولقد خلط النحاة العرب خلطاً كبيراً في تحديد هذه المخارج" [32].

الرابع عشر- ملحوظات في المصطلح الذي استخدمه الباحثون:

1- أبقى بعضُ الباحثين على استعمال المصطلحات العربية القديمة عند وصف الأصوات، من ذلك ما فعله د. تمام حسان حين استعمل مصطلحي: الأصوات الشديدة ، والأصوات الرخوة. في حين استبدل بعض الباحثين هذين المصطلحين بمصطلحي : الأصوات الانفجارية، والأصوات الاحتكاكية.

2- مقابلة بعض الباحثين بعض ما جد من المصطلحات في الدراسة الصوتية بما كان مستعملاً في الدراسات العربية القديمة، فالدكتور كمال بشر

يقابل بين (الصوت الصامت) و(الحرف) عند العرب الأوائل [33]. كما قابل د. محمود السعران بين مصطلح (الصوائت) وما سماه العرب الأوائل (الحركات)، و(حروف المد واللين) [34]. ويقابل ما سماه (الانفجار الأنفي) بما في التراث العربي فيقول: " ونقرب بالاصطلاح العربي التقليدي فنقول: عندما يكون الانفجار ساكناً وبعده صوت أغن كالميم والنون" [35].

3- استعمال مصطلح مشغول في الدراسات القديمة، وتحويل دلالة هذا المصطلح إلى معنى حديث. من ذلك ما فعله د. إبراهيم أنيس حين أطلق على الحركات وحروف المد واللين في العربية أي ما يسمى في الدراسات الحديثة (الصوائت) أطلق عليها د. أنيس مصطلح "أصوات اللين" [36]. وهذا المصطلح مشغول في العربية بأصوات لا تصدق على كل ما أدخله د. أنيس تحتها.

ومن ذلك أيضًا ما فعله د. تمام حسان حين استخدم مصطلح (أصوات العلة) لما يطلق عليه حديثاً (الصوائت) [37]، بل إن د. تمام لا يمانع أبداً في استعمال مصطلح مشغول ما دام مستخدمه يبين ما عنى به من دلالة، وينص على ذلك فيقول: " إن اختيار رمز من الرموز ليدل على شيء من الأشياء إنما هو مسألة اختيار مطلق... فيستطيع المرء أن يستخدم رمزاً قديماً بمعناه التقليدي أو يدخل عليه بعض التعديل في الشكل أو الدلالة أو يخلق رموزه الخاصة طالما التزم ببيان دلالتها قبل الاستعمال" [38].

4- تداخل المصطلحات في أثناء وصف ظاهرة صوتية، فالدكتور إبراهيم أنيس خلط بين الوصف الصوتي وما قرّ في الذهن العربي بسبب الدرس النحوي والرسم الكتابي، إذ قال في أثناء حديثه عن حرص القدماء على جهر الأصوات الشديدة لما رأوا شيوع همسها في نطق بعض اللهجات: "فالصوت الشديد المجهور مال دائماً إلى أن يصبح مهموساً ولاسيما إذا كان مشكلاً بالسكون، متطرفاً أو في وسط الكلمة، وقد جاوره صوت مهموس" [39].

5- عدم الاكتفاء بمصطلح واحد عند الإشارة إلى قضية ما. من ذلك ما فعله د. محمود [40] حين أطلق على أصوات الغنة: "غناء (أنفية)"، وأطلق على بعض الأصوات صفة: "مستلبة، أو (مستلة) أو (مفردة)"، ومنه أيضاً إطلاقه: " (أشباه صوائت) أو (أنصاف الصوائت)".

وبعدَ الاطلاع على هذه الدراسات الأربع الحديثة لأصوات العربية يُمكنُ إيجازُ إسهام الدارسين الأربعة المحدثين في أعمالهم التي تقدم هذه الأوراق قراءة لها بالآتي:

1- أعادوا وصف الأصوات العربية المعاصرة وصفاً كاملاً.

2- أعادوا قراءة التراث في ضوء ما تعلموه، فاكتشفوا أهمية التراث بطريقة علمية .وفي ذلك كشف عن القيمة الحقيقية للتراث.

3- وقفوا على بعض الفروق بين الدراسة اللغوية الحديثة للأصوات ودراسة الأصوات في التراث.

4- أنهم أضافوا إلى ما قدمه القدماء كالتنبيه إلى الوترين الصوتيين، ودراسة المقاطع والنبر، والتنغيم في الاستعمال العربي الحديث.

5- قدموا تفسيرات حديثة لما يحصل لأصوات العربية في نظامها اللغوي في ضوء معطيات الدراسة الصوتية الحديثة، كتفسيرهم ما يحصل للحركات الطويلة في آخر الفعل المضارع (معتل الآخر) المجزوم، أو آخر فعل الأمر بأنه قصر لها وليس حذفاً لحرف العلة كما فسره النحاة. وتفسيرهم سبب طول الحركات (المدّ) في القراءات القرآنية حين تليها الهمزة (وهو أن الجمع بين الحركة والهمزة كالجمع بين المتناقضات فإذ لم تمد الحركة فنيت في الهمزة).

6- أنهم تعاملوا مع الأصوات من حيثُ الأهمية تعاملاً واحداً؛ فهم يعدون الصوامت (الحروف) والصوائت (الحركات الطويلة والقصيرة) أصواتاً يجب دراستها على حد سواء، وانتقدوا العلماء الأوائل بأنهم لم يولوا الحركات أهميتها، وأن دراستهم مالت إلى التركيز على الحروف.

7- آمن الباحثون بالتطور اللغوي، وعزوا إليه بعض التغيرات التي طرأت على أصوات العربية بين وصفهم الحديث ووصف القدماء القديم.

8- نسب بعض الدارسين خطأ العرب في نطق بعض الأصوات غير العربية مثل (P) الإنجليزي إلى عدم وجود نظير مهموس له في أصوات العربية.

9- أشاروا إلى أهمية وجود أبجدية صوتية عند الكتابة تفي بمتطلبات كتابة الأصوات كما تنطق، وقد اعتمد بعض الدارسين على الأبجدية الدولية.

ملحوظات سجلها الباحثُ في هذه القراءة على بعض ما جاء في الأعمال الأربعة:

لا شكّ في أنَّ الدراسات الأربع التي تقدم هذه الأوراق قراءة لها قام بها أساتذة أفاضل، وأعلام أجلاّء، ولكن هناك ملحوظات تُستدرَك على بعض ما جاء فيها ويُمكنُ مناقشتها، وهي كما أراه:

1- ما قام به د. أنيس حين فسر بعض مقولات علماء التجويد بما جدّ في البحث الصوتي الحديث كتفسيره ما سمّوه (الإخفاء) بأنه إطالةٌ للصوت، فيظهر لي أن د. أنيس بهذا التفسير قد سلب صفة قدمها علماء التجويد وقرر أنهم عنوا بها إطالة الصوت، ولا مانع من اجتماع الأمرين كما يبدو، والأقرب أن علماء التجويد عنوا بالإخفاء ما يقولون إذ كانوا يتحدثون عن ظاهرة صوتية تحدث في النون الساكنة بسبب العامل السياقيّ، وذلك حين يلي هذا الصوت واحدٌ من أصوات بعينها، ويؤيد هذا أن علماء التجويد عندما تناولوا إدغام النون الساكنة بأحد الأصوات لم يمنعهم ذلك من أن يذكروا الإطالة وأن الحرف المدغم يُمد حركتين فجمعوا بين

الأمرين (الظاهرة الصوتية التي تحدث لسبب سياقيّ، وإطالة الصوت في النطق)؛ لذا فإن حصر د. أنيس إرادة علماء التجويد بالإخفاء إطالة الصوت أمر يحتاج إلى تأمُّل أطول.

2- عد د. أنيس " أنلزمكموها" كلمةً اتصلت بها لواحق، وكذلك " فسيكفيكهم " [41] حين تحدث عن مقاطع العربية وأقصى عدداً من المقاطع تحويه كلمةٌ عربية، وبناء عليه فقد رأى إمكان احتواء الكلمة العربية على سبعة مقاطع. ويبدو لي أن في هذا وهماً، فصحيح أن المقاطع الصوتية متصلة فيما مثل به، لكن اتصالها لا يعني تكوينها كلمة واحدة، بل هي تركيب من فعل وفاعل ومفعول، وكل جزء من هذا التركيب يؤدي وظيفة نحوية، فاللواحق هنا ليست لواحق تصريفية تبقى معها الكلمة مفردة كالألف والنون والياء والنون في التثنية، والواو والنون والياء والنون في جمع المذكر السالم...، فلا يسلَّم بكون ما مثل به د. إبراهيم أنيس كلمةً واحدة، وبناء على ذلك فإنّ احتواء الكلمة العربية الواحدة على سبعة مقاطع محل نقاش.

3- انتقد د. كمال بشر تعريفاً للقدماء عرفوا به الصوت الصامت، ولم يحدد من يعني بالقدماء، فقال: " فالصوت الصامت عندهم هو الصوت الذي لا يمكن نطقه بدون حركة وهو تعريف خاطئ ولا شك إذ من اليسير نطق الصوت الصامت وحده " [42]. ويبدو لي أن د.كمال قد أسقط مصطلحاً حديثاً على مصطلح قديم وحكم بخطأ القديم انطلاقاً من رؤية معاصرة، والمفترض أن يقرأ القديم بحسب مصطلحاته ومدلولات هذه المصطلحات، لا بحسب مصطلحات اليوم ومدلولاتها.

4- بعد تصنيف د. كمال بشر أصوات العربية الحديثة أشار إلى أن علماء العربية قد قدموا في دراستهم مثل ذلك، فصنفوا أصوات العربية القديمة حسب مخارجها، ثم وصف ما جاء به الخليل بأنه مضطرب، ووصف ما جاء به سيبويه بالدقة النسبية ثم قال عن ابن جني :" فنحن نفضل ما أتى به ابن جني في هذا المقام لتفوقه على سيبويه في هذه المسألة" [43]. وأنا أزعم هنا أن في عمل د. كمال هذا انتقاءً دون تقديم أسبابٍ علمية لهذا الانتقاء.

5- سكت د. محمود السَّعران عن تصنيف صوت الجيم من حيث الصفة فلم يضعه مع الأصوات الانفجارية، ولا مع الأصوات الاحتكاكية ولم يضع له تصنيفاً آخر كما فعل غيره فعدوه صوتاً انفجارياً احتكاكياً.

وبعد فهذه لبنة موجزة عن أربعة أعمال عربية حديثة تناولت الأصوات العربية بالدرس والتحليل اعتماداً على ما قدمه علم اللغة الحديث، كان الهدف منها الوقوف على إسهام اللغويين المحدثين في دراسة أصوات العربية.

الهـوامش:

1- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية. ط5 ، مكتبة الأنجلو المصرية . ص 158.
2- محمود السعران، علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي. دار النهضة العربية – بيروت. ص 103- 112.
3- محمود السعران، ص 113 وما بعدها.
4- إبراهيم أنيس: ص 157.
5- كمال بشر، علم اللغة العام : الأصوات. ط4 . دار المعارف بمصر . ص 82 وما بعدها.
6- إبراهيم أنيس: ص 157.
7- كمال بشر : ص 93 94.
8- كمال بشر: ص 110.
9- إبراهيم أنيس: ص 203.
10- كمال بشر: ص 94.
11- إبراهيم أنيس: ص 174.
12- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة. دار الثقافة – الدار البيضاء ، 1407هـ /1986م . ص 194 وما بعدها.
13- إبراهيم أنيس: ص 163.
14- تمام حسان ، ص 173.
15- كمال بشر. ص 89- 90 .
16- تمام حسان ص 110- 111.
17- انظر: إبراهيم أنيس : ص 171.
18- إبراهيم أنيس: ص 157.
19- انظر: إبراهيم أنيس: ص 154.
20- إبراهيم أنيس: ص 156.
21- تمام حسان . ص 173.
22- انظر: إبراهيم أنيس : ص 165.
23- انظر: إبراهيم أنيس: ص 166.
24- انظر: إبراهيم أنيس: ص 167.
25- انظر: إبراهيم أنيس: ص 172.
26- انظر: كمال بشر: ص 88.
27- انظر: محمود السعران ص 164 .
28- انظر: كمال بشر: ص88.
29- كمال بشر: ص 97.
30- كمال بشر: ص 147.
31- تمام حسان . ص 111.
32- كمال بشر: ص 75- وص 87- و ص 98.
33- محمود السعران: ص 149.
34- محمود السعران: ص 163.
35- إبراهيم أنيس : ص 155.
36- تمام حسان: ص 136.
37- تمام حسان: ص 170.
38- إبراهيم أنيس: ص 156.
39- كمال بشر: ص 152 وما بعدها.
40- انظر: إبراهيم أنيس : ص 162.
41- كمال بشر: ص 75.
42- كمال بشر: ص 90 .